بلال بن رباح

الاسلام ومحاربة التمييز العنصري

عبد الرحمن بن عبد الكريم الشيحة

بسم الله الرحمن الرحيم

في عصر ساد فيه الجهل وحكم الغاب فعبدت الأصنام وأكلت الميتة واقترفت فيه الفواحش وقطعت الأرحام وساد فيه التمييز العنصري وتقسم الناس إلى طبقات اجتماعية لكل ميزته وخصائصه المدعاة، فظلم فيه القوي الضعيف وأكل فيه الغني الفقير واستعبد الناس بعضهم بعضاً، أشرقت الدنيا ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم الذي ما أن صدع بدعوته التي انتشرت انتشار النار في الهشيم حتى انقلبت المقاييس ئالتي كانت سائدة في ذلك الوقت رأسا على عقب فصادمت أهواء ورغبات الكثير فعاداه تبعاً لذلك كل من كان ظالماً متسلطا آكلاً لأموال الناس بالباطل وما ذاك إلا لأنه صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة التوحيد الذي يدعو لتحرير البشر من العبودية لغير الله فكانت نتيجته تحرير النفس البشرية من كل سيطرة تستبد به أو تستعبده، شريعة من مبادئها محاربة الجهل وتحريم الفواحش ماظهر منها وما بطن شريعة تحرم الظلم والجور وتقضي على كافة التقسيمات الطبقية التي كانت سائدة في المجتمع والقائمة على اختلاف اللون أو الجنس أو العرق شريعة تضع الإنسان في مكانه الذي يريده الله له من التكريم وتنقذه من الذل والمهانة التي فرضها عليه مسترقي البشر وتعطيه حقوقه التي سلبها منه مصاصوا الدماء .

كان الإنسان قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم يعبد بشراً أو حجراً مصوراً أو خشباً منحوتاً ويستعبد أخاه الإنسان بما وضعه من أنظمة جائرة - سواء كانت مالية أو اجتماعية - يستنزف بها جهده وكرامته ويسرق بها عرق جبينه فحارب الإسلام جميع ما كان من أنظمة تلزم بالدونية وتقسم المجتمع إلى طبقات اجتماعية جاء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فقال:" يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد الآ لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى"[1] " [2]

فلقد كانت الكتب المقدسة لدى الهنود البرهميين تقرر التفاضل بين الناس بحسب عنصرهم ونشأتهم الأولى فتذكر أن براهما قد خلق فصيلة البرهميين من فمه وخلق فصيلة الكشتريين من ذراعه وفصيلة الفيسائيين من فخذه وفصيلة السودرائيين من قدمه، وكانت كتبهم تقسم الوظائف الإنسانية بين هذه الطبقات، فجعلت أكثرهم رجساً ونجساً المنحطين من فخذه وقدمه فهم طبقة دونية منحطة لا يتولون إلا الأعمال الوضيعة ولم يخلقوا إلا لخدمة البرهميين .

كذلك قدماء اليونان والرومان كانوا يعتقدون أنهم شعب خلقوا من عناصر تختلف عما خلقت منه الشعوب الأخرى التي كانوا يطلقون عليها البربر ولقد عبر عن هذا التمييز كبير فلاسفتهم أرسطو حيث يقرر[3] : أن الآلهة خلقت نوعين من الناس :نوع زودته بالعقل والإرادة وهو نوع اليونان الذي خلق على هذا لتقويم الكامل ليكون خليفتها في الأرض وسيد على سائر البشر، ونوع لم تزوده إلا قوى الجسم وما يتصل اتصالاً مباشراً بالجسم وهؤلاء هم البرابرة -أي من عدا اليونان من الناس- وقد فطرتها الآلهة على هذا التقويم الناقص ليكون أفرادها عبيداً مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة .

كما كان اليهود والنصارى قبل الإسلام يرون أنهم شعب الله المختار لهم مكانة ومنزلة خاصة يتميزون بها عن ما عداهم من سائر البشر ، فهم يرون أنهم عنصر مختلف لذا ينظرون إلى من سواهم نظرة وضيعة بحسب عنصرهم ، وهم من يطلقون عليهم اسم الجويم وهذا المصطلح

[1] مسند الإمام أحمد ج 5 ص 411رقم الحديث 23536
[2] مسند الإمام أحمد ج2 ص361 رقم الحديث 8721
[3] كتاب السياسة لأرسطو

يطلق على من سوى اليهود ومعناه الكفرة و الوثنيين و الأنجاس ...!!! فهم بزعمهم يستحقون استعباد واستغلال من سواهم لأنهم شعب وضيع حسب النشأة الأولى ، ولقد بين الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، فقال: "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"

يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية :"أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا.

فنظرتهم لمن سواهم من الشعوب دونية فغيرهم من الشعوب خلقهم الله ليكونوا عبيداً لليهود، فقال الله تعالى مبيناً حقيقتهم وأن الخلق كلهم سواء لافرق بينهم وأن هذا مجرد أماني في أنفسهم:" وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير "[4]

كذلك كان العرب في جاهليتهم قبل الإسلام يرون أنفسهم شعب كامل الإنسانية وما سواهم وهم ما يطلقون عليهم الأعاجم شعوب وضيعة ناقصة الإنسانية، فبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ معتقدهم وضلال تفكيرهم، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه :" ماينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى "[5]

بل جعل من كلامه نبراساً يقتدون به في كيفية احترام الغير وعدم احتقاره بناءً على تعاليم الشريعة الإسلامية التي جاءت لتزيل هذه الطبقية وهذه التفرقة، فعن بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ:" رأيت غنماً كثيرة سوداء دخلت فيها غنم كثيرةً بيض" قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال:" العجم يشركونكم في دينكم وأنسابكم" قالوا: العجم يا رسول الله!! قال:" لو كان الإيمان معلقا بالثريا لناله رجال من العجم وأسعدهم به الناس "[6]

فالناس معادن والبشر لكل جنس خصائصه التي خصه الله بها كطبيعة بشرية وليس كأصل في الخلق والمنشأ والكمال لله تعالى والنقص والعيب سمة ابن آدم حاشا الأنبياء والرسل عليهم السلام ولقد أثرت هذه التعاليم في نفوس المسلمين وبدءوا ينصفون غيرهم ويتعاملون معهم وفق هذه التعاليم، يقول الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ وهو عِنْدَ عَمْرِو بن الْعَاصِ سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ[7] يقول:" تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ الناس" فقال له عَمْرٌو: أَبْصِرْ ما تَقُولُ قال: أَقُولُ ما سمعت من رسول اللَّهِ ﷺ ،قال: لَئِنْ قُلْتَ ذلك إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ الناس عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ و َأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ من ظُلْمِ الْمُلُوكِ.

جاء الرسول صلى الله عليه وسلم ليلغي هذه الطبقية البغيضة فكانت الحرية من مبادئ شريعته حرية مطلقة لجميع البشر وفق ضوابط الشريعة التي طبقها الخلفاء من بعده ولم يفرقوا في ذلك بين حاكم أو محكوم أو غني أو فقير ، يقول أنس رضي الله عنه أن رجلا من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم .

قال عمر رضي الله عنه: عذت معاذا!!.

---

[4] المائدة آية : 18

[5] رواه البخاري

[6] المستدرك على الصحيحين ج 4 ص 437

[7] صحيح مسلم ج 4 ص2222

قال: سابقت ابن عمرو بن العاص – وكان والياً لعمر على مصر -فسبقته فجعل يضربني بالسوط، ويقول: أنا ابن الأكرمين !!!
فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه فقدم.
فقال: عمر أين المصري ؟
خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ، ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين!!
قال أنس: فضرب فوالله لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه.
ثم قال عمر: للمصري ضع السوط على صلعة عمرو.
فقال يا أمير المؤمنين: إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه.
فقال عمر: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.
قال يا أمير المؤمنين: لم أعلم ولم يأتني.
وكذلك الدعوة للمساواة بين جميع البشر و وضع الإنسان مع أخيه الإنسان في وضع متساو بغض النظر عن جميع الاختلافات والفروق التي بينهم فجميعهم في أصل الإنسانية والخلق والمنشاء واحد ذكرهم وأنثاهم أبيضهم وأسودهم عربيهم وأعجميهم جاء بها القرآن صرخة مدوية أطلقا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم فقال تعالى " يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام " [8]
فأصل البشر ونشأتهم واحدة ومرجعها لمصدر واحد هو آدم عليه سلم كما بين ربنا تبارك وتعالى ذلك فقال " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون "9
ثم جعله عليه السلام مصدراً للتكاثر والانتشار في الأرض قال الله تعالى :" ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون"
فكل البشر منحدرون من أب واحد وأم واحدة فلا فضل لأحدهم على الآخر بحسب عنصره وأصله ،فأول ما خلق الله سبحانه وتعالى من البشر آدم ﷺ أبو البشر جميعاً ثم خلق منه زوجته حواء أم البشر وجعل تناسل البشرية منهما إلى أن يأذن الله بفناء الخلق جميعاً وقيام الساعة فلما يفخر البعض على البعض ويذل البعض البعض ويستعبد البعض البعض ويحتقر البعض البعض وهم في الأصل واحد، يقول ﷺ " ان الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي وفاجر شقي والناس بنو آدم وآدم من تراب " [10]
ويقول الله تعالى :" وماكان الناس إلا أمة واحدة فا ختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون " [11]
فكل من وجد من البشر ومن سيوجد أصلهم ونشأتهم واحدة بدايتهم كانت تحت دين واحد ولغة واحدة لكن مع تكاثرهم وازديادهم تفرقوا في الأرض وانتشروا في شتى البقاع فكانت نتيجة حتمية طبيعية أن يتبع هذا التفرق والانتشار اختلاف اللغات واختلاف الألوان واختلاف الطبائع وذلك نتيجة حتمية لتأثير البيئة عليهم فيتبع هذا الاختلاف اختلاف في أسلوب التفكير ، وأسلوب المعيشة وكذلك المعتقدات، لذلك بعث الله الرسل لهم ليردوهم إلى المصدر والمنبع الأول وهو عبادة الله وحده لاشريك له، قال الله تعالى :" ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله

[8] النساء 1
9آل عمران آيه : 59
[10] مسند الإمام أحمد ج2 ص361 رقم الحديث 8721
[11] يونس 19

واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين " [12]
إن الإسلام لايعبأ بالأشكال الظاهرة للناس .... لأن رسوله صلى الله عليه وسلم هو القائل :" رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره "[13]
ولما كان هناك أناس سيستغلون هذا الاختلاف بين البشر في اللون أو العرق أو الجنس ليروجوا لهذه الطبقية البغيضة قطعت الشريعة الإسلامية الطريق أمامهم فبين صلى الله عليه وسلم سبب إختلاف ألوان بني آدم وأمزجتهم وطبائعهم فقال :" إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأسود والأبيض والأصفر وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب "14
فالناس جميعاً بغض النظر عن أجناسهم أو ألوانهم أو لغتهم أو أوطانهم في وضع متساو فالكل أمام الله سواء، إلا في شيء واحد يحصل فيه التمايز والتغاير بينهم ألا هو بعدهم وقربهم من تطبيق شرع الله وفيما يقدمونه من خير وصلاح لهم ولمجتمعهم، يقول الله تعالى :" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" [15]
فالله جعلكم شعوباً وقبائل ليس لتفضيل شعب على شعب أو قبيلة على قبيلة أخرى وإنما قسم هذا التقسيم ليكون وسيلة للتعارف والتمييز بينكم ، كشأن الأفراد يحمل كل منهم اسماً ليعرف به ويتميز عن غيره.
ويقول الله تعالى :" ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"[16]
هذا التكريم عام لجميع البشر بلا استثناء فلم يختص بجنس على جنس أو جماعة على جماعة.
ويقول الله تبارك وتعالى " هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات "[17]

جميع البشر بلا استثناء خلقوا جميعاً لعبادة الله ولعمارة الكون والقيام بواجب الاستخلاف الذي بينه سبحانه وتعالى في هذه الآية وجعل التفاوت والاختلاف بينهم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي والمناظر والأشكال والألوان وليس في أصل المنشأ كما بين ذلك الله تعالى بقوله :" نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا"
فبناءً على هذه المساواة التي أقرها الإسلام يكون البشر بلا استثناء متساوون في:

- حفظ الحقوق المشروعة لكل إنسان بغض النظر عن جنسه أو عرقه أو لونه والتمتع بالحرية المنضبطة بضابط الدين الذي يخرجها عن الحرية المطلقة البهيمية التي يذوق العالم المتحضر اليوم نتائجها المريرة بما خلفته من مجتمعات بدأت في الانحدار والسقوط من خلال أفراد اغلبهم لايعرفون آبائهم بسبب انتشار الرذائل وسجون تغص بمجرمي القضايا الخلقية والمالية والاجتماعية ...ألخ يقول صلى الله عليه وسلم :" الناس سواسية كأسنان المشط "

---

[12] النحل 36
[13] المستدرك على الصحيحين ج 4ص 364
14صحيح ابن حبان ج 14 ص 29 رقم الحديث 6160
[15] الحجرات 13
[16] الإسراء آيه : 70
[17] الأنعام آيه : 165

- الناس جميعاً متساوون أمام أحكام الشرع فلا تفريق بسبب الجنس أو العرق أو اللون ، يقول الله تعالى :" إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا "[18]
ويقول صلى الله عليه وسلم :" أَيُّهَا الناس إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وإذا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا "[19]
- وكذلك متساوون من ناحية المسؤولية والجزاء والثواب، يقول الله تعالى :" فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره "
- وكذلك متساوون في حق الكرامة الإنسانية فلا يؤذى أحد بسبب لونه أو جنسه أو مذهبه أو عقيدته، يقول الله تعالى :" ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون " [20]
- وكذلك متساوون في حرمة الدماء والأموال والأعراض. يقول صلى الله عليه وسلم :" ...فإن دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذا في شَهْرِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فإن الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ من هو أَوْعَى له منه"[21]
- وكذلك متساوون في تولي القيادات في المجتمع المبني على الاستحقاق والمقدرة والكفاءة، فعن عدي الكندي قال: قال رسول الله ﷺ:" يا أيها الناس من عمل منكم لنا عملا فكتمنا منه مخيطا فما فوقه فهو غال يأتي به يوم القيامة "فقام رجل اسود كأني أنظر إليه أراه من الأنصار قال: اقبل عني عملك يا رسول الله !! قال:" وما ذاك ؟" قال: سمعتك تقول: الذي قلت: قال:" وأنا أقوله الآن من استعملناه على عمل فليجيء بقليله وكثيره فما أوتي أخذ وما نهي عنه انتهى" [22]
- وكذلك متساوون بالانتفاع بما أو دع الله في هذا الكون من خيرات ، يقول الله تعالى:" يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين" [23]
- وكذلك متساوون في التعبد لله وحده لاشريك له فالإسلام نزل للجميع على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأعراقهم فالكل عبد لله ، يقول الله تعالى :" يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون"[24]

بل لقد جاءت شريعته صلى الله عليه وسلم ملغيةً لكل ما يجلب التعصب العنصري المقيت أو يذكر به، فعن أبي عُقْبَةَ وكان مَوْلًى من أَهْلِ فَارِسَ قال: شَهِدْتُ مع رسول اللَّهِ ﷺ أُحُدًا فَضَرَبْتُ رَجُلا من الْمُشْرِكِينَ فقلت: خُذْهَا مِنِّي وأنا الْغلامُ الْفَارِسِيُّ !! فَالْتَفَتَ إلي رسول اللَّهِ ﷺ فقال:" فَهلا قُلْتَ خُذْهَا مِنِّي وأنا الْغُلامُ الأَنْصَارِيُّ "[25]

---

[18] النساء آية 58
[19] رواه مسلم
[20] الأنعام 108
[21] صحيح البخاري ج 1ص37
[22] صحيح بن حبان ج 11 ص 469
[23] البقرة 168
[24] البقرة 21
[25] سنن ابي داوودج 4 ص 332

فلقد حضه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانتساب للأنصار وكان هذا أحب إليه من الانتساب إلى فارس وهي نسبة حق وليس محرم انتسابه إليه ولكن قال هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصاً منه على أن يكون الولاء والبراء من أجل الدين، بعيداً عن أي نعرة قومية.
ليس المقياس في الإسلام هو الحسب والنسب، فلقد أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم من المودة والحب لصهيب الرومي ولبلال بن رباح ماجعله يقول :" هو رجل من أهل الجنة "
و لسلمان الفارسي وهو فارسي الأصل ما جعله يقول : " سلمان منا أهل البيت"
ما اظهر ضده من شدة البغض والكراهية والعداوة لعمه أبي لهب والذي نزل فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة يتوعده بالعذاب الشديد قال الله تعالى :" تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ، سيصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ"
علماً أنه من أفضل الناس نسباً فهو العربي القرشي السيد في قومه.
يطالعنا في القرآن الكريم دستور المسلمين الأول الذي أنزل للناس جميعاً اسم لقمان الحكيم العبد الأسود الحبشي الذي آتاه الله الحكمة والذي نزلت سورة كاملة باسمه تثني عليه وتذكر فضله إلى جانب كثير من سور القرآن التي سميت بأسماء بعض رسل وأنبياء الله والصديقين الأطهار كسورة نوح وإبراهيم وآل عمران ومريم و يوسف ويونس ومحمد ..ألخ يتلوها المسلمون في صلواتهم صباحاً ومساءً ، وما ذلك إلا ليتم تثبيت مبدأ المساواة بين جميع البشر في قلوب المسلمين ويستمر حاضراً في أذهانهم.
الحبشة أرض افريقية أغلب سكانها من السود أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في بداية دعوته لما آذت قريش أتباعه وضيقوا عليهم أن يهاجروا لها وقال لهم :" إن فيها ملكاً لايظلم عنده أحد "
فلما توفي ملكها النجاشي قال رسول الله ﷺ:" صلوا عليه" قالوا يا رسول الله: نصلي على عبد حبشي !؟ فأنزل الله عز وجل:" وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمناً قليلا"
قال صلى الله عليه وسلم:" اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ" فصَفَّ بِهِمْ بِالْمُصَلَّى فَكَبَّرَ عليه أَرْبَعًا[26]
لم يكن مبدأ الدعوة للمساواة في الإسلام مجرد آماني وأحاديث يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قومه بل طبقها عملياً، فهذا أسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن مولاه شديد السواد أفطس الأنف كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذه هو والحسن ابن ابنته فاطمة رضي الله عنها ويقول: "اللهم أحبهما فإني أُحِبُّهما"[27]
بل لقد أخر النبي ﷺ أمراً يتعلق بالعبادة وأمور المسلمين وهو الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره فجاء غلام أسود أفطس فقال: أهل اليمن إنما جلسنا لهذا !!!
فلذلك ارتدوا يعني أيام الردة. [28]
وتقول عائشة رضي الله عنها زوج الرسول صلى الله عليه وسلم : ما ينبغي لأحد أن يبغض أسامة بعد ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان يحب الله ورسوله فليحب أسامة".
كان صلى الله عليه وسلم يتبع القول العمل تقول عائشة رضي الله عنها: أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمسح مخاط أسامة فقلت: دعني حتى أكون أنا التي أفعل. فقال: "يا عائشة أحبيه فإني أحبه".

[26] صحيح البخاري ج 1 ص 466
[27] رواه البخاري
[28] سير اعلام النبلاء ج2 ص 500

بل جعله صلى الله عليه وسلم وهو الرجل الأسود المولى قائدًا لجيش المسلمين لغزو الروم، وأميرًا على جيش فيه كبار الصحابة وأشرافهم ، فكأن بعض الصحابة رضي الله عنهم استكثروا ذلك على أسامة وتكلموا في ذلك، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر وحمد الله ثم أثنى عليه وقال:" إن تطعنوا في إمارته -أي إمارة أسامة- فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله، إن كان لخليقًا للإمارة لجديرًا بها، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ -يقصد زيد بن حارثة أبو اسامة- وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده" [29]

ويموت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يتحرك جيش أسامة لغزو الروم وكان قبل وفاته يقول :"أنفذوا بعث أسامة، أنفذوا بعث أسامة"

ويتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة بعد رسول الله ويصر على إنجاز وصية الرسول فيقول له عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : إن الأنصار ترى أن يتولى قيادة الجيش من هو أكبر سنًّا من أسامة، فيغضب أبو بكر -رضي الله عنه- ويقول: ثكلتك أمك يابن الخطاب، استعمله رسول الله وتأمرني أن أنزعه، والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني؛ لأنفذت بعث أسامة.

ويخرج القائد الشاب الأسود أسامة من المدينة بجيشه، ويخرج معه أبو بكر مودعًا، وبينما أسامة راكب على فرسه، إذا بأبي بكر يسير على قدميه، فيستحي أسامة من هذا الموقف، ويقول لأبي بكر: يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن، فيقول أبو بكر: والله لا نزلت، ووالله لا ركبتُ، وما عليَّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة.

ثم يستأذن أبو بكر من أسامة أن يبقى معه عمر في المدينة ليعينه على أمور الحكم فيعطي أعظم قدوة في استئذان القائد مهما كان صغيرًا.

بدأ صلى الله عليه وسلم في تطبيق مبدأ المساواة عليه شخصياً فلقد كان صلى الله عليه وسلم من أفضل الناس نسباً، وعشيرته من اشرف العشائر، وقبيلته من أفضل القبائل عند العرب لها مكانتها التي لاينازعها عليها أحد ومع ذلك فقد كان يقول صلى الله عليه وسلم :" لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أن عبد فقولوا عبد الله ورسوله " [30]

بل لقد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من هو في المكانة والنسب والشرف بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد .

كان صلى الله عليه وسلم يعمل جميع ما في وسعه ليرسي هذه المبادئ النبيلة من الشريعة الإسلامية في نفوس أتباعه وذلك بتفقد أحوالهم والسؤال عنهم من غير تفريق بينهم، يقول أبو هريرة رضي الله عنه :كانت أمرة سوداء تقم المسجد أو شاباً ، ففقدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عنها أو عنه ، فقالوا : مات ، قال صلى الله عليه وسلم :" أفلا كنتم آذنتموني ؟" فكأنهم صغروا أمرها أو أمره، فقال :" دلوني على قبره " فدلوه فصلى عليه ، ثم قال :" إن هذه القبور مملؤة ظلمة على أهلها ، وإن الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم "[31]

بل كان يؤثر على نفسه زهداً منه في الدنيا بلا تفريق في أعطياته وهباته بحسب اللون أو الجنس ، يقول حكيم بن حزام : كان محمد النبي أحب الناس إلي في الجاهلية فلما تنبأ وخرج إلى المدينة خرج حكيم بن حزام الموسم فوجد حلة لذي يزن تباع بخمسين درهما فاشتراها ليهديها إلى رسول الله ﷺ فقدم بها عليه وأراده على قبضها فأبى عليه، قال عبيد الله حسبت أنه قال:" إنا لا نقبل من المشركين شيئا ولكن أخذناها بالثمن فأعطيتها إياه حتى أتى المدينة فلبسها فرأيتها

---

[29] متفق عليه
[30] رواه البخاري
[31] رواه البخاري

عليه على المنبر فلم أر شيئا قط أحسن منه فيها يومئذ ثم أعطاها أسامة بن زيد فرآها حكيم على أسامة فقال: يا أسامة أنت تلبس حلة ذي يزن !؟ قال: نعم لأنا خير من ذي يزن ولأبي خير من أبيه ولأمي خير من أمه.[32] ما الذي جعله يقول هذا الكلام ؟؟ إنه الإسلام الذي ساوى بين جميع البشر بغض النظر عن أجناسهم أو ألوانهم وأعطاهم حقوقهم والذي منها حرية التعبير والتي كانوا محرومين منها قبله .

كان صلى الله عليه وسلم يجالس أصحابه ويحادثهم ويمازحهم و يتفقد أحوالهم ويسمع شكواهم ويصحح ما يخالف تعاليم دين الإسلام من تصرفاتهم الفعلية والقولية خاصة ما يكون فيه من استحقار أو انتقاص للغير، يقول أبو هريرة رضي الله عنه : استب رجلان فعير أحدهما الآخر بأمه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعا الرجل فقال:" أعيرته بأمه "فأعاد ذلك مرارا فقال: الرجل يا رسول الله استغفر الله لما قلت فقال رسول الله ﷺ ":ارفع رأسك فانظر إلى الملأ" فنظر إلى من حول رسول الله ﷺ فقال:" ما أنت بأفضل من أحمر وأسود منهم إلا من كان له فضل في الدين"[33]

بل كان صلى الله عليه وسلم لايرضى أن يحتقر أحد أو يعير من البشر بحضرته أو في غيبته فلقد اجتمع أصحابة يوماً في مجلس من مجالسهم لم يكن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضراً، و كان ممن حضر هذا المجلس خالد بن الوليد وعبد الرحمن ابن عوف و بلال بن رباح و أبو ذر الغفاري من كبار الصحابة وأشرافهم ، لم يكن فيهم رجل اسود سوى بلال الحبشي ، وكان أبو ذر فيه حدة وحرارة من طبع .. فتكلم الناس في موضوع ما .. فتكلم أبو ذر ..، فخطئه بلال رضي الله عنه .

فقال أبو ذر: حتى أنت ياابن السوداء تخطئني ..،،،

فقام بلال مندهشا غضبان أسفا ..

وقال: والله لأرفعنك لرسول الله ..

واندفع ماضيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فأخبره مقولة أبي ذر ..

فتغير وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ..

فاندفع أبو ذر مسرعا إلى المسجد لما سمع الخبر ..

فلما دخله قال : السلام عليك يا رسول ..

قال : أبو ذر والله ما علمت أرد علي السلام أم لا من شدة غضبه .

قال عليه الصلاة والسلام: "يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟؟؟ إنك امرؤ فيك جاهلية."

فبكى أبو ذر .. وجثى على ركبتيه .. قال: يارسول الله استغفر لي ..

ثم خرج باكيا من المسجد ... فلقيه بلال فلما رآه أبوذر طرح رأسه في طريقه ووضع خده على التراب ..

وقال: والله يا بلال لا ارفع خدي عن التراب حتى تطأه برجلك أنت الكريم وأنا المهان .....،،

فأخذ بلال يبكي .. واقترب من أبي ذر وقبل خده وقال بلال : أن جبهة تسجد لله لا تطأها قدم بل يتم تقبيلها.

من هو هذا الرجل الذي غضب له صلى الله عليه وسلم هذا الغضب حتى خيل لأبي ذر أن رسول الله لم يرد عليه السلام ؟

---

[32] **المستدرك على الصحيحين ج:3 ص:551**

[33] مسند اسحاق بن راهويه ج1 ص 427 رقم الحديث 493

من هو هذا الرجل الطويل النحيل الشديد السمرة الكث الشعر الخفيف العارضين الذي كان الناس يأتونه فيذكرون فضله وما قسم الله له من الخير فما أن يسمع هذا الثناء حتى يعرف نفسه حقها ليمنعها من الغرور والكبرياء فيقول ودموعه تنحدر على خديه: إنما أنا حبشي كنت بالأمس عبدا؟

من هو هذا العبد الحبشي الذي لم تزده المكانة الرفيعة والمنزلة العالية التي تبوءها في الإسلام إلا تواضعاً ومعرفة لأهل الحق حقهم حتى قال لما بلغه أن ناسا يفضلونه على أبي بكر– الخليفة الأول بعد رسول الله -أفضل الخلق بعد الرسل والأنبياءِ قال: كيف تفضلوني عليه وإنما أنا حسنة من حسناته؟.

من هذا العبد الحبشي الذي كان يدخل الكعبة فيبصق على الأصنام التي بداخلها ويقول : قد خاب وخسر من عبدكن ؟

من هذا العبد الحبشي الذي شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة حينما قال له ﷺ يوماً عند صلاة الفجر :" ِ يا بِلالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ في الإسْلامِ فَإِنِّي سمعت دَفَّ نَعْلَيْكَ بين يَدَيَّ في الْجَنَّةِ " قال: ما عَمِلْتُ عَمَلا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لم أَتَطَهَّرْ طَهُورًا في سَاعَةِ لَيْلٍ أو نَهَارٍ إلا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ ما كُتِبَ لي أَنْ أُصَلِّيَ قال: أبو عَبْد اللَّهِ دَفَّ نَعْلَيْكَ يَعْنِي تَحْرِيكَ "[34]

من هو هذا العبد الحبشي الذي أنزل الله فيه وفي أمثاله من المستضعفين قرآن يتلى إلى يوم القيامة فقد أتى أشراف قريش النبي ﷺ وهو قاعد مع بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وغيرهم مثل ابن أم عبد وعمار وخباب من ضعفاء المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت!!

قال:" نعم" قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتابا، قال: فدعا بالصحيفة ودعا عليا ليكتب، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد من هذا استمالة قلوب هؤلاء وتأليف قلوبهم إذا في ذلك تقوية للإسلام وأهله ولكن حتى هذا في شريعة الإسلام لاوزن له فالمبادئ مبادئ والقيم قيم ... وينزل عليه الوحي [35]بقول الله تعالى :"ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يردون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم "[36]

فألقى رسول الله الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول:" سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة"

فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى:" واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا"

قال فكان رسول الله يقعد معنا بعد فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم.

فمن هذا الحبشي الذي كان بالأمس عبدا وأصبح اليوم بإسلامه سيدا!!..

---

[34] صحيح البخاري

[35] ينزل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل عليه السلام وهو الموكل بالوحي وله صور كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منها: 1- يأتيه الملك في صورة رجل فيكلمه ويكلمه النبي2- ويأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس وهو أشدها عليه

[36] الأنعام 52

دعونا نسمع قصته كما كتبه خالد محمد خالد رحمه الله يقول[37] :
انه "بلال بن رباح" أول مؤذن في الإسلام صدع بنداء الحق .
إنه بلال محطم الأصنام.
إنه بلال ومن لايعرف بلال الذي سكن قلوب ومشاعر المسلمين في جميع أصقاع المعمورة
هو إحدى معجزات الإسلام العظيمة..
في كل عشرة مسلمين. منذ بدأ الإسلام إلى اليوم، والى ما شاء الله سنلتقي بسبعة على الأقل يعرفون بلالا..
أي أن هناك مئات الملايين من البشر عبر القرون والأجيال عرفوا بلالا، وحفظوا اسمه، وعرفوا دوره. تماما كما عرفوا أعظم خليفتين في الاسلام: أبي بكر وعمر!!...
وانك لتسأل الطفل الذي لا يزال يحبو في سنوات دراسته الأولى في مصر أو باكستان أوالصين..
وفي الأمريكيتين، و أوروبا وروسيا..
وفي العراق ، وسوريا، وايران والسودان..
في تونس والمغرب والجزائر..
في أعماق أفريقيا، وفوق هضاب آسيا..
في كل بقعة من الأرض يقطنها مسلمون، تستطيع أن تسأل أي طفل مسلم: من بلال يا غلام؟
فيجيبك: انه مؤذن الرسول.. وانه العبد الذي كان سيّده يعذبه بالحجارة المستعرّة ليردّه عن دينه، فيقول:
"أحد.. أحد"..
وحينما تبصر هذا الخلود الذي منحه الإسلام بلالا.. فاعلم أن بلال هذا، لم يكن قبل الإسلام أكثر من عبد رقيق، يرعى ابل سيّده على حفنات من التمر، حتى يطو به الموت، ويطوّح به إلى أعماق النسيان..
لكن صدق إيمانه، وعظمة الدين الذي آمن به بوأه في حياته، وفي تاريخه مكانا عليّا في الإسلام بين العظماء والشرفاء والكرماء...
إن كثيرا من عليّة البشر، وذوي الجاه والنفوذ والثروة فيهم، لم يظفروا بمعشار الخلود الذي ظفر به بلال العبد الحبشي!!..
بل ان كثيرا من أبطال التاريخ لم ينالوا من الشهرة التاريخية بعض الذي ناله بلال..
ان سواد بشرته، وتواضع حسبه ونسبه، وهوانه على الناس كعبد رقيق، لم يحرمه حين آثر الإسلام دينا، من أن يتبوأ المكان الرفيع الذي يؤهله له صدقه ويقينه، وطهره، وتفانيه..
فلقد كان الناس يظنون أن عبدا مثل بلال، ينتمي إلى أصول غريبة.. ليس له أهل، ولا حول، ولا يملك من حياته شيئا، فهو ملك لسيّده الذي اشتراه بماله.. يروح ويغدو وسط شويهات سيده وإبله وماشيته..
كانوا يظنون أن مثل هذا الكائن، لا يمكن أن يقدر على شيء ولا أن يكون شيئا..
ثم إذا هو يخلف الظنون جميعا، فيقدر على إيمان، هيهات أن يقدر على مثله سواه.. ثم يكون أول مؤذن للرسول والإسلام العمل الذي كان يتمناه لنفسه كل سادة قريش وعظمائها من الذين أسلموا واتبعوا الرسول!!..
أجل.. بلال بن رباح!

[37] رجال حول الرسول بتصرف

أيّة بطولة.. وأيّة عظمة يعبر عنها هذا الإسم بلال ابن رباح..؟!
انه حبشي من أمة سوداء اسمها حمامه ... جعلته مقاديره عبداً لأمية بن خلف الجمحي بمكة، حيث كانت أمه إحدى إمائهم وجواريهم..
كان يعيش عيشة الرقيق، تمضي أيامه متشابهة قاحلة، لا حق له في يومه، ولا أمل له في غده!!..
ولقد بدأت أنباء محمد تنادي سمعه، حين أخذ الناس في مكة يتناقلونها، وحين كان يصغي الى أحاديث ساداته وأضيافهم، سيما "أمية بن خلف" أحد شيوخ بني جمح القبيلة التي كان بلال أحد عبيدها..
كان سيده أمية وهو يتحدّث مع أصدقائه حينا، وأفراد قبيلته أحيانا عن الرسول حديثا يطفح غيظا، وغمّا وشرا..
وكانت أذن بلال تلتقط من بين كلمات الغيظ المجنون، الصفات التي تصور له هذا الدين الجديد وما جاء به من التوحيد والدعوة للأخلاق الفاضلة المساواة والحرية .. وكان يحس أنها صفات جديدة على هذه البيئة التي يعيش فيها.. كما كانت أذنه تلتقط من خلال أحاديثهم الراعدة المتوعدة اعترافهم بشرف محمد وصدقه وأمانته ورجاحة عقله!!
أجل انه ليسمعهم يعجبون، ويحارون، في هذا الذي جاء به محمد!!..
ويقول بعضهم لبعض: ما كان محمد يوما كاذبا. ولا ساحرا..ولا مجنونا.. وان لم يكن لنا بد من وصمه اليوم بذلك كله، حتى نصدّ عنه الذين سيسارعون إلى دينه!!..
سمعهم يتحدّثون عن أمانته..
عن وفائه..
عن رجولته وخلقه..
عن نزاهته ورجاحة عقله..
وسمعهم يتهامسون بالأسباب التي تحملهم على تحديّه وعداوته، تلك هي: ولاؤهم لدين آبائهم أولا.
والخوف على مجد قريش ثانيا، ذلك المجد الذي يفيئه عليها مركزها الديني، كعاصمة للعبادة والنسك في جزيرة العرب كلها، ثم الحقد على بني هاشم، أن يخرج منهم دون غيرهم نبي ورسول!...
وذات يوم يبصر بلال بن رباح نور الله، ويسمع في أعماق روحه الخيّرة رنينه، فيذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسلم..
لم تكن الحياة في حياة بلال بعد إسلامه هادئة كما كانت من قبل نوماً وأكلاً وشرباً..
ولا يلبث خبر اسلامه أن يذيع.. وتدور الأرض برؤوس أسياده من بني جمح.. تلك الرؤوس التي نفخها الكبر وأثقلها الغرور..!! وتجثم شياطين الأرض فوق صدر أميّة بن خلف الذي رأى في اسلام عبد من عبيدهم لطمة جللتهم جميعا بالخزي والعار..
عبدهم الحبشي يسلم ويتبع محمد..؟!
ويقول أميّة لنفسه: ومع هذا فلا بأس.. إن شمس هذا اليوم لن تغرب إلا ويغرب معها إسلام هذا العبد الآبق!!..
ولكن الشمس لم تغرب قط بإسلام بلال بل غربت ذات يوم بأصنام قريش كلها، وحماة الوثنية فيها!...

أما بلال فقد كان له موقف ليس شرفاً للإسلام وحده، وان كان الإسلام أحق به، ولكنه شرف للإنسانية جميعا..
لقد صمد لأقسى ألوان التعذيب صمود ألبرار العظام.
ولكأنما جعله الله مثلا على أن سواد البشرة وعبودية الرقبة لا ينالان من عظمة الروح اذا وجدت ايمانها، واعتصمت بباريها، وتشبثت بحقها..
لقد أعطى بلال درساً بليغا للذين في زمانه، وفي كل مكان، للذين على دينه وعلى كل دين.. درساً فحواه أن حريّة الضمير وسيادته لا يباعان بملء الأرض ذهبا، ولا بملئها عذابا..
كان أول من أظهر إسلامه في بداية الدعوة سبعة رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب فدافع عنه وحماه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون وألبسوا أدرع الحديد وصهروهم في الشمس فما منهم أحد إلا واتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول أحد أحد[38]
لقد وضع عريانا فوق الجمر، على أن يزيغ عن دينه، أو يزيف اقتناعه فأبى..
لقد جعل الرسول عليه الصلاة والسلام، والاسلام، من هذا العبد الحبشي المستضعف أستاذا للبشرية كلها في فن احترام الضمير، والدفاع عن حريته وسيادته..
لقد كانوا يخرجون به في الظهيرة التي تتحول الصحراء فيها الى جهنم قاتلة..
فيطرحونه على حصاها الملتهب وهو عريان، ثم يأتون بحجر مستعر كالحميم ينقله من مكانه بضعة رجال، ويلقون به فوق جسده وصدره..
ويتكرر هذا العذاب الوحشي كل يوم، حتى رقّت لبلال من هول عذابه بعض قلوب جلاديه، فرضوا آخر الأمر أن يخلوا سبيله، على أن يذكر آلهتهم بخير ولو بكلمة واحدة تحفظ لهم كبرياءهم، ولا تتحدث قريش أنهم انهزموا صاغرين أمام صمود عبدهم واصراره..
ولكن حتى هذه الكلمة الواحدة العابرة التي يستطيع أن يلقيها من وراء قلبه، ويشتري بها حياته نفسه، دون أن يفقد ايمانه، ويتخلى عن اقتناعه..
حتى هذه الكلمة الواحدة رفض بلال أن يقولها!..
نعم لقد رفض أن يقولها، وصار يردد مكانها نشيده الخالد:"أحد أحد"
يقولون له: قل كما نقول..
فيجيبهم في تهكم عجيب وسخرية كاوية:
"ان لساني لا يحسنه!!.."
ويظل بلال في ذوب الحميم وصخره، حتى اذا حان الأصيل أقاموه، وجعلوا في عنقه حبلا، ثم أمروا صبيانهم أن يطوفوا به جبال مكة وشوارعها. وبلال لا يلهج لسانه بغير نشيده المقدس:" أحد أحد."
وكأني اذا جنّ عليهم الليل يساومونه:
غدا قل كلمات خير في آلهتنا، قل ربي اللات والعزى، لنذرك وشأنك، فقد تعبنا من تعذيبك، حتى لكأننا نحن المعذبون!
فيهز رأسه ويقول:" أحد.. أحد."..
ويلكزه أمية بن خلف وينفجر غمّا وغيظا، ويصيح: أي شؤم رمانا بك يا عبد السوء..؟واللات والعزى لأجعلنك للعبيد والسادة مثلا.

[38] صحيح بن حبان ج 15 ص 558

ويجيب بلال في يقين المؤمن وعظمة القديس:
"أحد.. أحد"..
ويعود للحديث والمساومة، من وكل إليه تمثيل دور المشفق عليه، فيقول:
خل عنك يا أميّة.. واللات لن يعذب بعد اليوم، ان بلالا منا أمه جاريتنا، وانه لن يرضى أن يجعلنا باسلامه حديث قريش وسخريّتها..
ويحدّق بلال في الوجوه الكاذبة الماكرة، ويفتر ثغره عن ابتسامة كضوء الفجر، ويقول في هدوء يزلزلهم زلزالا:
"أحد.. أحد"..
وتجيء الغداة وتقترب الظهيرة، ويؤخذ بلال إلى الرمضاء، وهو صابر محتسب، صامد ثاب، ويذهب إليهم أبو بكر الصديق وهو يعذبونه، ويصيح بهم:ألا تتقون الله "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله"؟؟
حتى متى ؟ فيقول أمية : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى !!
فِيصيح في أميّة بن خلف: خذ أكثر من ثمنه واتركه حرا..
وكأنما كان أمية يغرق وأدركه زورق النجاة..
لقد طابت نفسه وسعدت حين سمع أبا بكر يعرض ثمن تحريره إذ كان اليأس من تطويع بلال قد بلغ في نفوسهم أشده، ولأنهم كانوا من التجار، فقد أدركوا أن بيعه أربح لهم من موته..
باعوه لأبي بكر الذي حرّره من فوره، وأخذ بلال مكانه بين الرجال الأحرار...
وحين كان الصدّيق يتأبط ذراع بلال منطلقا به إلى الحرية قال له أمية:
خذه، فو اللات والعزى، لو أبيت إلا أن تشتريه بأوقية واحدة لبعتكه بها..
وفطن أبو بكر لما في هذه الكلمات من مرارة اليأس وخيبة الأمل وكان حريّا بألا يجيبه..
ولكن لأن فيها مساسا بكرامة هذا الذي قد صار أخا له، وندّا،أجاب أمية قائلا:
والله لو أبيتم أنتم إلا مائة أوقية لدفعتها!!..
وانطلق بصاحبه إلى رسول الله يبشره بتحريره.. وكان عيدا عظيما!
عان المسلمون الذين أمنوا بالرسول أشد الأذى من قريش في مكة ... فأمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة ليكونوا في مأمن هناك وبعيداً عن أذى المشركين من قريش ...
بعد استقرار الرسول والمسلمين في المدينة، يُشرّع الرسول للصلاة أذانها..
فمن يكون المؤذن للصلاة خمس مرات كل يوم..؟ وتصدح عبر الأفق تكبيراته وتهليلاته..؟
انه بلال.. الذي صاح منذ ثلاث عشرة سنة والعذاب يهدّه ويشويه أن: "الله أحد..أحد."
لقد وقع اختيار الرسول عليه اليوم ليكون أول مؤذن للإسلام.
وبصوته النديّ الشجيّ مضى يملأ الأفئدة إيمانا، والأسماع روعة وهو ينادى:
الله أكبر.. الله أكبر
الله أكبر .. الله أكبر
أشهد أن لااله الا الله
أشهد أن لا اله الا الله
أشهد أن محمدا رسول الله
أشهد أن محمدا رسول الله
حي على الصلاة
حي على الصلاة

حي على الفلاح
حي على الفلاح
الله أكبر.. الله أكبر
لااله الا الله...
لكن المشركين من قريش لا يهناء لهم بال وهم يرون هذا الدين الجديد ينموا ويزداد أتباعه... وينشب القتال بين المسلمين وجيش قريش الذي قدم إلى المدينة غازيا..
وتدور الحرب عنيفة قاسية ضارية..وبلال هناك يصول ويجول في أول غزوة يخوضها الإسلام، غزوة بدر ..تلك الغزوة التي أمر الرسول عليه السلام أن يكون شعارها" :أحد..أحد."
في هذه الغزوة ألقت قريش بأفلاذ أكبادها، وخرج أشرافها جميعا لمصارعهم!!..
ولقد همّ بالنكوص عن الخروج "أمية بن خلف" .. هذا الذي كان سيدا لبلال، والذي كان يعذبه في وحشيّة قاتلة..
همّ بالنكوص لولا أن ذهب إليه صديقه "عقبة بن أبي معيط" حين علم عن نبأ تخاذله وتقاعسه، حاملا في يمينه مجمرة حتى إذا واجهه وهو جالس وسط قومه، ألقى المجمرة بين يديه وقال له: يا أبا علي، استجمر بهذه، فإنما أنت من النساء!!!..
وصاح به أمية قائلا: قبحك الله، وقبّح ما جئت به..
ثم لم يجد بدّا من الخروج مع الغزاة فخرج..
أيّة أسرار للقدر، يطويها وينشرها..؟
لقد كان عقبة بن أبي معيط أكبر مشجع لأمية على تعذيب بلال، وغير بلال من المسلمين المستضعفين..
واليوم هو نفسه الذي يغريه بالخروج الى غزوة بدر التي سيكون فيها مصرعه!!..
كما سيكون فيها مصرع عقبة أيضا!
لقد كان أمية من القاعدين عن الحرب.. ولولا تشهير عقبة به على هذا النحو الذي رأيناه لما خرج!!..
ولكن الله بالغ أمره، فليخرج أمية فان بينه وبين عبد من عباد الله حسابا قديما، جاء أوان تصفيته، فالديّان لا يموت، وكما تدينون تدانون!!..
وان القدر ليحلو له أن يسخر بالجبارين.. فعقبة الذي كان أمية يصغي لتحريضه، ويسارع إلى هواه في تعذيب المؤمنين الأبرياء، هو نفسه الذب سيقود أميّة الى مصرعه..
وبيد من..؟
بيد بلال نفسه.. وبلال وحده!!
نفس اليد التي طوّقها أميّة بالسلاسل، وأوجع صاحبها ضربا، وعذابا..
مع هذه اليد ذاتها، هي اليوم، وفي غزوة بدر، على موعد أجاد القدر توقيته، مع جلاد قريش الذي أذل المؤمنين بغيا وعدوا..
ولقد حدث هذا تماما..
وحين بدأ القتال بين الفريقين، وارتج جانب المعركة من قبل المسلمين بشعارهم:" أحد.. أحد" انخلع قلب أمية، وجاءه النذير..
ان الكلمة التي كان يرددها بالأمس عبد تحت وقع العذاب والهول قد صارت اليوم شعار دين بأسره وشعار الأمة الجديدة كلها!!..
"أحد..أحد"؟؟!!

أهكذا..؟ وبهذه السرعة.. وهذا النمو العظيم..؟؟
وتلاحمت السيوف وحمي القتال..
وبينما المعركة تقترب من نهايتها، لمح أمية بن خلف "عبد الرحمن بن عوف" صاحب رسول الله، فاحتمى به، وطلب اليه أن يكون أسيره رجاء أن يخلص بحياته..
وقبل عبد الرحمن عرضه وأجاره، ثم سار به وسط العمعمة الى مكان السرى.
وفي الطريق لمح بلال فصاح قائلا:
"رأس الكفر أميّة بن خلف ..لا نجوت ان نجا."
ورفع سيفه ليقطف الرأس الذي لطالما أثقله الغرور والكبر، فصاح به عبد الرحمن بن عوف:
"أي بلال.. انه أسيري."
أسير والحرب مشبوبة دائرة..؟
أسير وسيفه يقطر دماً مما كان يصنع قبل لحظة في أجساد المسلمين..؟
لا.. ذلك في رأي بلال ضحك بالعقول وسخرية.. ولقد ضحك أمية وسخر بما فيه الكفاية..
سخر حتى لم يترك من السخرية بقية يدخرها ليوم مثل هذا اليوم، وهذا المأزق، وهذا المصير!!..
ورأى بلال أنه لن يقدر وحده على اقتحام حمى أخيه في الدين عبد الرحمن بن عوف، فصاح بأعلى صوته في المسلمين:
"يا أنصار الله.. رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت ان نجا!..."
وأقبلت كوكبة من المسلمين تقطر سيوفهم المنايا، وأحاطت بأمية وابنه وكان يحارب مع قريش ولم يستطع عبد الرحمن بن عوف أن يصنع شيئا.. بل لم يستطع أن يحمي أدراعه التي بددها الزحام.
وألقى بلال على جثمان أمية الذي هوى تحت السيوف القاصفة نظرة طويلة، ثم هرول عنه مسرعا وصوته النديّ يصيح:
"أحد.. أحد"..
لا أظن أن من حقنا أن نبحث عن فضيلة التسامح لدى بلال في مثل هذا المقام..
فلو أن اللقاء بين بلال وأمية تمّ في ظروف أخرى، لجاز لنا أن نسال بلالا حق التسامح، وما كان لرجل في مثل إيمانه وتقاه أن يبخل به.
لكن اللقاء الذي تم بينهما، كان في حرب، جاءها كل فريق ليفني غريمه..
السيوف تتوهج.. والقتلى يسقطون.. والمنايا تتواثب، ثم يبصر بلال أمية الذي لم يترك في جسده موضع أنملة الا ويحمل آثار تعذيب.
وأين يبصره وكيف..؟
يبصره في ساحة الحرب والقتال يحصد بسيفه كل ما يناله من رؤوس المسلمين، ولو أدرك رأس بلال ساعة إذ لطوّح به..
في ظروف كهذه يلتقي الرجلان فيها، لا يكون من المنطق العادل في شيء أن نسأل بلالا: لماذا لم يصفح الصفح الجميل..؟؟
وتمضي الأيام وتفتح مكة..
ويدخلها الرسول شاكرا مكبرا على رأس عشرة آلاف من المسلمين..
ويتوجه الى الكعبة رأسا.. هذا المكان المقدس الذي زحمته قريش بعدد أيام السنة من الأصنام!!..

لقد جاء الحق وزهق الباطل..
ومن اليوم لا عزى.. ولا لات.. ولا هبل.. لن يحني الإنسان بعد اليوم هامته لحجر، ولا وثن..
ولن يعبد الناس ملء ضمائرهم الا الله الذي ليس كمثله شيء، الواحد الأحد، الكبير المتعال..
ويدخل الرسول الكعبة، مصطحبا معه بلال!..
ولا يكاد يدخلها حتى يواجه تمثالا منحوتا، يمثل ابراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام، فيغضب الرسول ويقول:
"قاتلهم الله..
ما كان شيخنا يستقسم بالأزلام ..ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين."
ويأمر بلال أن يعلو ظهر المسجد، ويؤذن.
ويؤذن بلال.. فيالروعة الزمان، والمكان، والمناسبة!!..
كفت الحياة في مكة عن الحركة، ووقفت الألوف المسلمة كالنسمة الساكنة، تردد في خشوع وهمس كلمات الآذان وراء بلال.
يخطب الرسول في أهل مكة فيقول "يامعشر قريش..
ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء..
الناس من آدم وآدم من تراب.."
ويقول في نهاية خطبته وهو المنتصر ، يا أهل مكة ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟
قالوا خيراً أخو كريم وابن أخ كريم !!
قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء
والمشركون في بيوتهم لا يكادون يصدقون:
أهذا هو محمد وفقراؤه الذين أخرجوا بالأمس من هذا الديار..؟؟
أهذا هو حقا، ومعه عشرة آلاف من المؤمنين..؟؟
أهذا هو حقا الذي قاتلناه، وطاردناه، وقتلنا أحب الناس اليه..؟
أهذا هو حقا الذي كان يخاطبنا من لحظات ورقابنا بين يديه، ويقول لنا:
"اذهبوا فأنتم الطلقاء!!.."
وعاش بلال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يشهد معه المشاهد كلها، يؤذن للصلاة، ويحيي ويحمي شعائر هذا الدين العظيم الذي أخرجه من الظلمات الى النور، ومن الرق الى الحريّة..
وعلا شأن الإسلام، وعلا معه شأن المسلمين، وكان بلال يزداد كل يوم قربا من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يصفه بأنه:" رجل من أهل الجنة.."
لكن بلالا بقي كما هو كريما متواضعا، لا يرى نفسه الا أنه:" الحبشي الذي كان بالأمس عبدا!!.."
ذهب يوما يخطب لنفسه ولأخيه زوجتين فقال لأبيهما:
"أنا بلال، وهذا أخي عبدان من الحبشة.. كنا ضالين فهدانا الله ..وكنا عبدين فأعتقنا الله.. ان تزوّجونا فالحمد لله.. وان تمنعونا فالله أكبر!!"..
يابلال لم تعد عبداً رقيقاً ... بل أصبحت في ظل الإسلام سيداً .. أليس عمر بن الخطاب خليفة الرسول الثاني قال فيك يوم عتقك : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا .
وذهب الرسول الى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا، ونهض بأمر المسلمين من بعده خليفته أبو بكر الصديق..

وذهب بلال الى خليفة رسول الله يقول له:
"يا خليفة رسول الله..
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ من صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ وَإِنْ مَاتَ جَرَى عليه عَمَلُهُ الذي كان يَعْمَلُهُ وأجرى عليه رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفَتَّانَ"[39]
فقال له أبو بكر: فما تشاء يا بلال..؟
قال: أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت..
قال أبو بكر ومن يؤذن لنا؟
قال بلال وعيناه تفيضان من الدمع، اني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله.
قال أبو بكر: بل ابق وأذن لنا يا بلال..
قال بلال: **يا أمير المؤمنين إن كنت إنما اشتريتني وأعتقتني لنفسك فأمسكني وإن كنت إنما اشتريتني وأعتقتني لله فذرني وعملي لله**
قال أبو بكر: بل أعتقتك لله يا بلال.. بل أعتقتك لله يا بلال..
سافر بلال الى الشام حيث بقي فيها مرابطا، إلى أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه يوماً وهو يقول :" ماهذه الجفوة يابلال؟ ما آن لك أن تزورنا" فانتبه حزيناً فركب للمدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يبكي عنده ، فأقبل الحسن والحسين فجعل يقبلهما ويضمهما إليه ، فقالا له: نشتهي أن تؤذن في السحر.
فعلا سطح المسجد وأخذ يؤذن ويرفع صوته الشجي العذب فلما قال : الله أكبر الله أكبر، ارتجت المدينة التي طالما سمعت هذا الصوت الشجي في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما قال:أشهد أن محمد رسول الله ، خرج الناس من بيوتهم يرددون معه وهم يبكون.
ولم يعد بعدها يصدح بالأذان بصوته الشجي الحفيّ المهيب، ذلك أنه لم ينطق في أذانه "أشهد أن محمدا رسول الله" حتى تجيش به الذكريات فيختفي صوته تحت وقع أساه، وتصيح بالكلمات دموعه وعبراته.
وكان آخر أذان له أيام زار أمير المؤمنين عمر الشام وتوسل المسلمون إليه أن يحمل بلالا على أن يؤذن لهم صلاة واحدة.
ودعا أمير المؤمنين بلال، وقد حان وقت الصلاة ورجاه أن يؤذن لها.
وصعد بلال وأذن.. فبكى الصحابة الذين كانوا أدركوا رسول الله وبلال يؤذن له..
بكوا كما لم يبكوا من قبل أبدا.. وكان عمر أشدهم بكاء!!..
ظل داعي السماء في بلاد الشام مرابطاً كما أراد حتى وافاه الأجل ، وكانت امرأته تعول بجانبه في مرض موته وتصيح قائلة : واحزناه
فكان يفتح عينه في كل مرة ويقول : وافرحتاه
ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يردد :
غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه
غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه
عن عمر ناهز بضعة وستون سنة ودفن عند الباب الصغير في مقبرة دمشق فحوى ثراها رفاث رجل من عظماء الإسلام الذين وقفوا وقوف الجبال الشامخة في ظل الثبات على المبادئ والتضحية من أجل الحق، فرضي الله عنك وأرضاك يابلال .

[39] صحيح مسلم

خاتمة الحديث :
قلي بربك أي عظمة وأي جلال وكبرياء وعزة يتركه هذا الدين في قلوب متبعيه إنه صوت الحق الذي يخالط بشاشة القلوب فيجعلها معلقة بالله تعالى خاضعة لجبروته متناسية كل ألم وكل مشقة تجدها في سبيله بل تعتبرها متعة كما يجد أصحاب الشهوات متعهم عند معاقرة شهواتهم ولكن هيهات هيهات بين متع وشهوات تورث الندم ويعقبها الحسرة ومتع تورث الخلود يعقبها النعيم إنهم اختاروا الطريق الصحيح الذي أوصلهم إلى ما أوصلهم إليه من السعادة التي وجدوها في جنب الله إن الوصول إلى ماوصلوا إليه من هذه السعادة ليس بالصعب ولكن يحتاج إلى شجاعة وجرأة على التغيير، إنهم عرفوا أن طريق الجنة الموصل إليها هو اتباع هذا الرسول الذي لم يعهدوا عليه الكذب والخيانة أوالغدر اسمع كلام قائلهم فيه قبل أن يسلم هو أَبَو سُفْيَانَ بن حَرْبٍ حيث يقول : أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إليه في رَكْبٍ من قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بالشام في الْمُدَّةِ التي كان رسول اللَّهِ ﷺ مَادَّ فيها أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ في مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فقال: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بهذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ فقال: أبو سُفْيَانَ فقلت : أنا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا فقال: أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ ثُمَّ قال لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لهم إني سَائِلٌ هذا عن هذا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ من أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عنه ثُمَّ كان أَوَّلَ ما سَأَلَنِي عنه أَنْ قال: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قلت: هو فِينَا ذُو نَسَبٍ قال: فَهَلْ قال هذا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قلت: لَا قال: فَهَلْ كان من آبَائِهِ من مَلِكٍ؟ قلت: لَا قال: فَأَشْرَافُ الناس يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فقلت: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ قال: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ قلت: بَلْ يَزِيدُونَ، قال: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ منهم سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه؟ قلت: لَا قال: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قبل أَنْ يَقُولَ ما قال؟ قلت: لَا قال: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قلت: لَا وَنَحْنُ منه في مُدَّةٍ لَا نَدْرِي ما هو فَاعِلٌ فيها قال: ولم تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فيها شيئا غَيْرُ هذه الْكَلِمَةِ قال: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قلت: نعم قال: فَكَيْفَ كان قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قلت: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ منه قال: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟قلت: يقول: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئا وَاتْرُكُوا ما يقول آبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ فقال لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ له سَأَلْتُكَ عن نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِهَا وَسَأَلْتُكَ هل قال أَحَدٌ مِنْكُمْ هذا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا فقلت لو كان أَحَدٌ قال هذا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ وَسَأَلْتُكَ هل كان من آبَائِهِ من مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا قلت فَلَوْ كان من آبَائِهِ من مَلِكٍ قلت رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أبيه وَسَأَلْتُكَ هل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قبل أَنْ يَقُولَ ما قال فَذَكَرْتَ أَنْ لَا فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لم يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ على الناس وَيَكْذِبَ على اللَّهِ وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ الناس اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حتى يَتِمَّ وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه فَذَكَرْتَ أَنْ لَا وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حين تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ وَسَأَلْتُكَ هل يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئا وَيَنْهَاكُمْ عن عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ فَإِنْ كان ما تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وقد كنت أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لم أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إليه لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كنت عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمِهِ ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رسول اللَّهِ ﷺ الذي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إلى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إلى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فإذا فيه بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ من مُحَمَّدٍ عبد اللَّهِ وَرَسُولِهِ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ على من اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فإن عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ "قل يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إلا اللَّهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ

شيئا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا من دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " قال أبو سُفْيَانَ فلما قال ما قال وَفَرَغَ من قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا فقلت لِأَصْحَابِي حين أُخْرِجْنَا لقد أَمِرَ أَمْرُ بن أبي كَبْشَةَ إنه يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ فما زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حتى أَدْخَلَ الله عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وكان بن النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ أسقفا على نَصَارَى الشام يحدث أَنَّ هِرَقْلَ حين قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ فقال بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ قد اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ قال بن النَّاظُورِ وكان هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ في النُّجُومِ فقال لهم حين سَأَلُوهُ إني رأيت اللَّيْلَةَ حين نَظَرْتُ في النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قد ظَهَرَ فَمَنْ يَخْتَتِنُ من هذه الْأُمَّةِ قالوا ليس يَخْتَتِنُ إلا الْيَهُودُ فلا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ وَاكْتُبْ إلى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا من فِيهِمْ من الْيَهُودِ فَبَيْنَمَا هُمْ على أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عن خَبَرِ رسول اللَّهِ ﷺ فلما اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قال اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هو أَمْ لَا فَنَظَرُوا إليه فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ وَسَأَلَهُ عن الْعَرَبِ فقال هُمْ يَخْتَتِنُونَ فقال هِرَقْلُ هذا مُلْكُ هذه الْأُمَّةِ قد ظَهَرَ ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إلى صَاحِبٍ له بِرُومِيَةَ وكان نَظِيرَهُ في الْعِلْمِ وَسَارَ هِرَقْلُ إلى حِمْصَ فلم يَرِمْ حِمْصَ حتى أَتَاهُ كِتَابٌ من صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ على خُرُوجِ النبي ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ في دَسْكَرَةٍ له بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ ثُمَّ اطَّلَعَ فقال يا مَعْشَرَ الرُّومِ هل لَكُمْ في الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هذا النبي فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إلى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قد غُلِّقَتْ فلما رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ من الْإِيمَانِ قال رُدُّوهُمْ عَلَيَّ وقال إني قلت مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بها شِدَّتَكُمْ على دِينِكُمْ فَقَدْ رأيت فَسَجَدُوا له وَرَضُوا عنه فَكَانَ ذلك آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ رَوَاهُ صَالِحُ بن كَيْسَانَ وَيُونُسُ وَمَعْمَرٌ عن الزُّهْرِيِّ[40]

[40] صحيح البخاري ج1 ص 10